أحاديث في الميزان

الأستاذ الدكتور

يوسف القرضاوي

مدير مركز بحوث السنة والسيرة

جامعة قطر

أحاديث في الميزان

أ.د / يوسف القرضاوي

حـــديث

« خير القرون قرني ثم الذين يلونهم »

لقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » مقولة غريبة ، مضمونها :أن الإنسانية التي يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ،لا نحو ما هو أفضل،وأن هذا التقدم إلى الأسوأ حتمي لا رادّ له،وفقًا لهذا الحديث وأمثاله .

ولهذا يُرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة،إما لتبرير ما حدث بالفعل،إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلاً،وإما لتوجيه مسيرة الإسلام في طريق اليأس، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون(١) .

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام لم يطعن عالم سنّي ولا معتزلي - فيما أعلم - في سنده أو متنه،بل ذكر ابن حجر والسيوطي وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر(٢) .

فاعتبار هذا الحديث موضوعًا :اتِّهام للأمة كلها بالجهل والغباء وترويج الباطل،واجتماعها على الضلالة طوال تلك العصور،وهذا مدخل لنسف الدين كله .

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث،وما رتَّبه عليه من نتائج،فهو غير مسلَّم له .

فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذي تلقَّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،وتربّى في حضانة النبوَّة،وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات

---

(١) انظر : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ، للدكتور فهمي جدعان ص ٢١ ، وما بعدها طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٢) انظر : نظم المتناثر في الحديث المتواتر ، للكتاني ، نشر دار الكتب العلمية بيروت ، حديث رقم (٢٤١) .

الله،ومن هدي رسول الله،وحمَّله القدر من المهمات مالم يحمله غيره،فهو الجيل الذي نقل القرآن للأمة،وروى لها السنن،وفتح الله على يديه البلاد،وهدى به العباد.ثم الجيل الذي تتلمذ على هؤلاء الأصحاب،واقتبس من مشكاتهم،واقتفى آثارهم،والجيل الثالث الذي سار على دربهم واتبعهم بإحسان،فرضي الله عنهم،ورضوا عنه.

ولا يشك دارس منصف أن (الإشعاع الروحي) لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة،كان من القوة والعمق والسعة،بحيث لا يلحقه جيل آخر،وهذا في الجملة لا في التفصيل،وفي أمر الدين والتقوى لا في أمر الحياة والعلم والعمران،فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضَّلة في الالتزام الديني.

وقد بشّر الرسول صلى الله عليه وسلم أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر،وسينفقون كنوزهما في سبيل الله،وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يوماً،وأن الرخاء سيبلغ مدىً لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل منه الصدقة،وأن الأمن سيستتب حتى إن المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام،لا تخاف إلا الله،وأن أرض العرب ستعود يوماً مروجاً وأنهاراً.فهل يعتبر هذا كله (تقدماً إلى الأسوأ)؟!

إن أي قارئ غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم طوّروا كثيراً من أمور الحياة،وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن في عصر النبوة،وهم الذين أمرنا أن نتبع سنتهم،ونعضّ عليها بالنواجذ،فهي امتداد للسنة النبوية المطهّرة.

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين في عهد الأمويين والعباسيين،يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن في العصر النبوي ولا العصر الراشدي،أقرّهم عليها علماء الأمة،وانعقد الإجماع على مشروعيتها.

ويكفي أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة،وتدوينها وتأصيلها،وظهور

المدارس العلمية والفكرية في شتى أنواع العلوم والآداب،ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى،عن طريق الترجمة،ثم تدارسها وإنضاجها وتهذيبها،وإعمال يد التعديل والتحسين والتحوير فيها،بالحذف والإضافة والتغيير،والتقديم والتأخير،حتى تنسجم مع المزاج العام للأمة،وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها،وتجد لها مكانًا في حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية. ثم ابتكار علوم جديدة كاملة،لم يعرفها السابقون.

وفي هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة،ثابتة الأصول،باسقة الفروع،وارفة الظلال،مباركة الثمار.

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة في مختلف مجالاتها،وشتى فروعها،بدعوى أن هناك أحاديث تغل أيديهم،أو تقيد أرجلهم،أو تشل تفكيرهم،محتّمة عليهم (التقدم إلى الأسوأ)!!

صحيح أن الأجيال المسلمة التي صنعت هذه الحضارة الشمّاء،لم تكن في شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية (الروحية)،وهو أمر اعترف به الجميع،ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام تفوقهم العلمي،وتقدّمهم الحضاري،وجهادهم الأخلاقي.بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالي نصب أعينهم،باعتباره مثلا إنسانيًا أعلى،وبذلك يجمعون بين الحسنيين أو يحاولون ذلك على الأقل:حسنة الإبداع الحضاري المادي وحسنة السمو الروحي والترقي الإيماني والخلقي.

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة،وتنوّه بصبرها وثباتها في عصور الفتن والأزمات التي يمتحن فيها أهل الإيمان،وحملة رسالة الإسلام،ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر،حتى ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين!!قيل:منّا أو منهم يارسول الله؟ قال : بل منكم(٣) .

(٣) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذي في التفسير (٣٠٦٠) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤) كلهم عن أبي ثعلبه الخشني .

كما صحَّت أحاديث كثيرة تبشِّر بغدٍ مشرق،ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام،وملك واسع لدولته.

وصحَّ الحديث كذلك أن الله يبعث في كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها،وبذلك يتجدد أملها،ويقوى رجاؤها،في صلاح الحال إذا فسد،وقوة الدين إذا ضعف،واستقامة الأمر إذا اعوج.

استمرار الخير في سائر أجيال الأمة:

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعني أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة،وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات،فقد حازتها تلك القرون،ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقي الفتات.

بل الحق الذي لا ريب فيه أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة:واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة في كل العصور ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا﴾ المائدة:٤٨.وكم ترك الأول للآخر،وكم في الإمكان أبدع مما كان. وفي الحديث الشريف:مثل أمتي كالمطر،لا يدرى أوله خير أم آخره(٤) .

يقرر الشراح هنا:أنه كما لا يحكم بوجود النفع في بعض الأمطار دون بعض،فكذلك لا يحكم بوجود الخيرية في بعض أجيال الأمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه،وفي هذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح،وطلب الفيض من جنابه مفسوح.فكل طبقة من طبقات الأمة لها خاصية وفضيلة،توجب خيريتها،كما أن كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها في

---

(٤) رواه الترمذي عن أنس في ابواب الأمثال (٢٨٧٣) وقال : حسن غريب ، ورواه أحمد والبزار والطبراني عن عمار بن ياسر ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٦٨) : ورجال البزار رجال الصحيح ، غير الحسن ابن قزعة ، وعبيد بن سليمان الأغر ، وهما ثقتان ، وفي عبيد كلام لا يضر ، ورواه البزار والطبراني في (الاوسط) عن عمران بن حصين ، وقال البراز : لا يروي باسناد أحسن من هذا . المجمع : (١٠/٦٨) ، ورواه ابن حبان في صحيحه عن سلمان ج ١٦ حديث (٧٢٢٦) حسنه محققه بشواهده .

النشوء والنماء لا يمكن إنكارها. فإن الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان، والآخرين آمنوا بالغيب، لما تواتر عندهم من الآيات، واتبعوا من قبلهم بالإحسان. وكما أن المتقدمين اجتهدوا في التأسيس والتمهيد، فالمتأخرون بذلوا وسعهم في التقرير والتأكيد، فكل ذنبهم مغفور، وسعيهم مشكور، وأجرهم موفور.

قالوا: والمراد هنا وصف الأمة قاطبة - سابقها ولاحقها، أولها وآخرها - بالخير، وأنها ملتحمة بعضها ببعض، مرصوصة كالبنيان، مفرغة كالحلقة التي لا يدرى أين طرفاها.

والمسلمون في كل مكان وزمان يردّدون هذا القول بوصفه حديثًا نبويًا: الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة ومعناه صحيح، وإن لم يرد بهذا اللفظ.

فقد صحَّت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله(٥)، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ الأعراف: ١٨١.

كما صحت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام، تعلو فيه كلمته، وتنشر دعوته، وتتسع دولته.

سنن وقواعد مطردة:

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون: أن ثمة مبادئ راسخة، وقواعد ثابتة، وسننًا مطردة، من محكمات القرآن والسنة، يحتكم إليها الجميع، منها:

١ـ أن لكل عمل ثمرة، ولكل جهد جزاء، في الدنيا قبل الآخرة، كما قال

---

(٥) صحيح مسلم، كتاب (الإمارة) ٥٣، والبخاري في صحيحه (٦١)، كتاب المناقب ٢٨، باب: ٦/٦٣٢.

تعالى: ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ الكهف: ٣٠، ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ الأعراف: ١٧٠.

٢ـ أن الجهاد في الله، سواء كان جهاداً روحيًا أم ماديًا، لا يهدره الله أبداً: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ العنكبوت: ٦٩.

٣ـ أن من نصر الله نصره الله، ومكن له في الأرض، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات، والصالحات: كل ما تصلح به الحياة روحيًا وماديًا، وما يصلح به الإنسان فرديًا وجماعيًا. يقول تعالى: ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ الحج: ٤٠,٤١، ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ﴾ النور: ٥٥.

حديث
(افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة)

س: ما مدى صحة الحديث الذي اشتهر بين الناس،وتناوله علماء الكلام والفرق وغيرهم؟وهو الحديث الذي يقول:افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة،وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة،وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة،كلها في النار إلا واحدة.قيل:ما هي يا رسول الله؟قال:هي الجماعةأو نحو ذلك،وقد شغل هذا الحديث العلماء،وحاولوا أن يحددوا هذه الفرق ويعددوها،وأجهدوا أنفسهم،حتى يصلوا بها إلى هذا الرقم (٧٣) كما حاول عبد القاهر البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) والشهرستاني في كتاب (الملل والنحل) وابن حزم في كتابه (الفصل)والإيجي في (المواقف)في علم الكلام وشرحه للشريف الجرجاني،والسعد التفتازاني في (شرح المقاصد) إلخ كما تحدث عنه أبو إسحاق الشاطبي في كتابه (الاعتصام).

فإن كان هذا الحديث صحيحا،فما هذه الفرق؟وهل يعني هذا أن افتراق الأمة قدر لازم؟وما هي الفرقة الناجية من بين هؤلاء الفرق الهالكين؟وما معنى (الجماعة) الواردة في الحديث؟

ج:الحمد لله،والصلاة والسلام على رسول الله

تعرضنا للكلام عن هذا الحديث منذ بضعة عشر عاما،عندما تحدثنا عن فقه الاختلاف في كتابنا (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم)وذكرنا بإجمال وتركيز القيمة العلمية لهذا الحديث،وبينا ما فيه من كلام كثير في ثبوته وفي دلالته ولا بأس أن نعيد هنا ما كتبناه هناك لأهميته وضرورته للسائل،ولمثله من القراء المسلمين.مع إضافة بعض الفوائد إليه إن شاء الله.

أ ـ فأول ما ينبغي أن يعلم هنا: أن الحديث لم يرد في أي من الصحيحين،برغم أهمية موضوعه،دلالة على أنه لم يصح على شرط واحد منهما.

وما يقال من أنهما لم يستوعبا الصحيح،فهذا مسلّم،ولكنهما حرصا أن لا يدعا بابا مهما من أبواب العلم إلا رويا فيه شيئا،ولو حديثا واحدا.

ب ـ إن بعض روايات الحديث لم تذكر أن الفرق كلها في النار إلا

واحدة،وإنما ذكرت الافتراق وعدد الفرق فقط.وهذا هو حديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم،وفيه يقول: ـ

' افترقت اليهود على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعون فرقة،وتفرقت النصارى على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة،وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة (٦) .

والحديث ـ وإن قال فيه الترمذي: حسن صحيح،وصححه ابن حبان والحاكم ـ مداره على محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي،ومن قرأ ترجمته في (تهذيب الكمال) للمزي وفي (تهذيب التهذيب) لابن حجر: علم أن الرجل متكلم فيه من قبل حفظه، وأن أحدا لم يوثقه بإطلاق، وكل ما ذكروه أنهم رجحوه على من هو أضعف منه. ولهذا لم يزد الحافظ في التقريب على أن قال: صدوق له أوهام. والصدق وحده في هذا المقام لا يكفي،ما لم ينضم إليه الضبط،فكيف إذا كان معه أوهام؟؟!

ومعلوم أن الترمذي وابن حبان والحاكم من المتساهلين في التصحيح،وقد وصف الحاكم بأنه واسع الخطو في شرط التصحيح.

وهو هنا صحح الحديث على شرط مسلم ، باعتبار أن محمد بن عمرو احتج به مسلم،ورده الذهبي بأنه لم يحتج به منفردا،بل بانضمامه إلى غيره (١ / ٦). على أن هذا الحديث من رواية أبي هريرة ليس فيه زيادة: أن الفرق' كلها في النار إلا واحدة وهي التي تدور حولها المعركة.

وقد روي الحديث بهذه الزيادة من طريق عدد من الصحابة: عبد الله بن عمرو،ومعاوية،وعوف بن مالك،وأنس،وكلها ضعيفة الإسناد،وإنما قووها بانضمام بعضها إلى بعض.

والذي أراه: أن التقوية بكثرة الطرق ليست على إطلاقها،وخصوصا عند المتقدمين من أئمة الحديث،فكم من حديث له طرق عدة ضعفوه،كما يبدو ذلك في كتب التخريج،والعلل،وغيرها! وإنما يؤخذ بها فيما لا معارض له، ولا إشكال في معناه.

---

(٦) أبو داود في السنة برقم (٤٥٩٦) والترمذي في الإيمان (٢٦٤٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن مختصراً (٣٩٩١) وابن حبان، كما في الموارد (١٨٣٤) والحاكم (٦/١). وصححه على شرط مسلم ورده الذهبي.

وهنا إشكال أي إشكال في الحكم بافتراق الأمة أكثر مما افترق اليهود والنصارى من ناحية،وبأن هذه الفرق كلها هالكة وفي النار إلا واحدة منها.وهو يفتح بابا لأن تدعي كل فرقة أنها الناجية،وأن غيرها هو الهالك،وفي هذا ما فيه من تمزيق للأمة،وطعن بعضها في بعض،مما يضعفها جميعا،ويقوي عدوها عليها،ويغريه بها.

ولهذا طعن العلامة ابن الوزير في الحديث عامة،وفي هذه الزيادة خاصة، لما تؤدي إليه من تضليل الأمة بعضها لبعض،بل تكفيرها بعضها لبعض.

قال رحمه الله في (العواصم والقواصم) وهو يتحدث عن فضل هذه الأمة،والحذر من التورط في تكفير أحد منها،قال:وإياك والاغترار بـ« كلها هالكة إلا واحدة » فإنها زيادة فاسدة،غير صحيحة القاعدة،ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة!

قال:وعن ابن حزم:أنها موضوعة،غير موقوفة ولا مرفوعة،وكذلك جميع ما ورد في ذم القدرية والمرجئة والأشعرية،فإنها أحاديث ضعيفة غير قوية (٧) .

ج - إن من العلماء قديما وحديثا من رد الحديث من ناحية سنده،ومنهم من رده من ناحية متنه و معناه (٨) .

---

(٧) العواصم والقواصم ج ١/١٨٦ .

(٨) وفي متن هذا الحديث إشكال من حيث أنه جعل هذه الأمة التي بوأها الله منصب الشهادة على الناس ، ووصفها بانها خير أمة أخرجت للناس ، أسوأ من اليهود والنصارى ، في مجال التفرق والاختلاف ، حتى إنهم زادو في فرقهم على كل من اليهود والنصارى .

هذا مع أن القرآن في شأن اليهود : (وألقينا بينهم العدوة والبغضاء إلى يوم القيامة) سورة المائدة : ٦٤ .

وقال في شأن النصارى : ﴿ ومن الذين قالوا : إنا نصارى ، أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ سورة المائدة : ١٤ .

ولم يجيء في القرآن عن أمة الإسلام شيء يشبه هذا ، بل فيه التحذير أن يتفرقوا ويختلفوا كما اختلف الذين من قبلهم .

ثم إن الحديث حكم على فرق الأمة كلها – إلا واحدة – بأنها في النار ، هذا مع ما جاء في فضل هذه الأمة ، وأنها أمة مرحومة ، وأنها تمثل ثلث أهل الجنة ، أو نصف أهل الجنة .

على أن الخبر عن اليهود والنصارى بأنهم افترقوا إلى هذه الفرق التي نيفت على السبعين غير معروف في تاريخ الملتين ، وخصوصاً عند اليهود . فلا يعرف أن فرقهم بلغت هذا المبلغ من العدد .

فهذا أبو محمد بن حزم،يرد على من يكفر الآخرين بسبب الخلاف في الاعتقاديات بأشياء يوردونها.

وذكر من هذه الأشياء التي يحتجون بها في التكفير حديثين يعزونهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،هما:

١ - القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة.

٢ - تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة،كلها في النار حاشا واحدة، فهي في الجنة.

قال أبو محمد :هذان حديثان لا يصحان أصلا من طريق الإسناد،وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد،فكيف من لا يقول به؟ (٩) .

وهذا الإمام اليمني المجتهد،ناصر السنة،الذي جمع بين المعقول والمنقول، محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠ هـ) يقول في كتابه (العواصم والقواصم) أثناء سرده للأحاديث التي رواها معاوية رضي الله عنه، فكان منها (الحديث الثامن): حديث افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا فرقة واحدة، قال: وفي سنده ناصبي،فلم يصح عنه، وروى الترمذي مثله من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال: حديث غريب. ذكره في الإيمان من طريق الأفريقي واسمه عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن يزيد عنه.

وروى ابن ماجه مثله عن عوف بن مالك،وأنس.

قال: وليس فيها شيء على شرط الصحيح،ولذلك لم يخرج الشيخان شيئا منها. وصحح الترمذي منها حديث أبي هريرة من طريق محمد بن عمرو بن علقمة،وليس فيه (كلها في النار إلا فرقة واحدة). وعن ابن حزم: أن هذه الزيادة موضوعة،ذكر ذلك صاحب (البدر المنير)(١٠) .

---

(٩) الفصل في الملل والنحل لابن حزم، تحقيق د/محمد إبراهيم نصر ود/ عبد الرحمن عميره، جـ٣ ص ٢٩٢، ط. دار عكاظ، جدة وقد ذكر الشيخ الألباني في (الصحيحة) رقم (٢٠٤) أنه بحث عن كلام ابن حزم هذا في (الفصل) فلم يعثر عليه، وهو ذا واضح صريح.

(١٠) العواصم والقواصم: لابن الوزير بتحقيق الشيخ شعيب الأورناؤوط، ج ٣ : ١٧٠ - ١٧٢ والمذكور هنا يرد على الشيخ الألباني الذي ذكر في (الصحيحة) المجلد الأول ج٣ / ١٩، ٢٠ أن ابن الوزير رد الحديث من جهة متنه لا من جهة سنده، ولا أدري من أين له هذا ؟! وصاحب (البدر المنير) هو: ابن الملقن.

وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة » (١١) ولم يزد على ذلك فلم يصفه بصحة ولا حسن، رغم أنه أطال في تفسير الآية بذكر الأحاديث والآثار المناسبة لها.

وذكر الإمام الشوكاني قول ابن كثير في الحديث ثم قال :قلت : أما زيادة كلها في النار إلا واحدة فقد ضعفها جماعة من المحدثين، بل قال ابن حزم : إنها موضوعة(١٢) .

على أن الحديث ـ وإن حسنة بعض العلماء كالحافظ ابن حجر، أو صححه بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيمية بتعدد طرقه ـ لا يدل على أن هذا الافتراق بهذه الصورة وهذا العدد، أمر مؤبد ودائم إلى أن تقوم الساعة،ويكفي لصدق الحديث أن يوجد هذا في وقت من الأوقات.

فقد توجد بعض هذه الفرق،ثم يغلب الحق باطلها،فتنقرض ولا تعود أبدا.

وهذا ما حدث بالفعل لكثير من الفرق المنحرفة،فقد هلك بعضها،ولم يعد لها وجود.

ثم إن الحديث يدل على أن هذه الفرق كلها (جزء من أمته) صلى الله عليه وسلم، أعني أمة الإجابة المنسوبة إليه،بدليل قوله : « تفترق أمتي » ومعنى هذا أنها ـ برغم بدعتها ـ لم تخرج عن الملة،ولم تفصل من جسم الأمة المسلمة.

وكونها (في النار) لا يعني الخلود فيها كما يخلد الكفار،بل يدخلونها كما يدخلها عصاة الموحدين.

وقد يشفع لهم شفيع مطاع من الأنبياء أو الملائكة أو آحاد المؤمنين،وقد يكون لهم من الحسنات الماحية،أو المحن والمصائب المكفرة،ما يدرأ عنهم العذاب.

وقد يعفو الله عنهم بفضله وكرمه،ولا سيما إذا كانوا قد بذلوا وسعهم في معرفة الحق،ولكنهم لم يوفقوا وأخطأوا الطريق،وقد وضع الله عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

---

(١١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧١٤٣ ، عيسى الحلبي .
(١٢) فتح القدير للشوكاني في تفسير الآيات ٦٥ – ٦٧ من سورة المائدة ج ٢ ص ٥٩ دار الفكر .

حـــديث

(رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: جهاد النفس)

س: سمعنا في بعض الأوساط الدينية -وبخاصة المتصوفة منها- حديثا يذكرونه كثيرا في مواعظهم وحلقاتهم، يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غزوة، وبعد رجوعه منها قال لأصحابه: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: جهاد النفس"

وعادة ما يذكر هذا الحديث للتهوين من شأن الجهاد والقتال في سبيل الله، دفاعا عن الدين أو الوطن، وأن على المسلم أن يهتم قبل كل شئ بتربية نفسه، وجهادها، فهل هذا الحديث صحيح من ناحية سنده؟ ومن رواه من أصحاب الكتب المعتمدة؟ وهل هو صحيح من ناحية معناه ومضمونه؟

ج: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله (وبعد)

فهذا الحديث ليس بصحيح ولا حسن، من ناحية سنده، ولم يخرجه مخرج من أصحاب الكتب المعتمدة لدى المسلمين، فليس هو في أحد الصحيحين، ولا في أحد الكتب الستة، ولا في الموطأ، ولا في مسند أحمد على كثرة ما فيه.

قال الحافظ بن حجر في (تسديد القوس في تخريج مسند الفردوس): هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن عيلة. انتهى. وقال العجلوني في (كشف الخفا): الحديث في الإحياء، قال العراقي رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر، ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر بلفظ: قدم النبي صلى الله عليه وسلم من غزاة، « قال عليه الصلاة والسلام: قدمتم من خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر،

قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال مجاهدة العبد هواه » والمشهور على الألسنة: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الأكبر، دون باقيه، ففيه اقتصار. انتهى.

وأما معناه، فهو يتضمن أمرين، أحدهما مرفوض قطعا، وهو المفهوم منه بالتبع، لا بالقصد والأصالة، وإن كان الذين يروونه ويروجونه يقصدون إلى ذلك.

والثاني: يمكن أن يقبل شرعا، وهو المفهوم منه قصدا، لا تبعا.

فأما المعنى الأول المرفوض فهو التقليل من شأن الجهاد في سبيل الله، والتهوين من مكانته وفضله في الإسلام، وضرورته للدفاع عن كيان الأمة ومقدساتها، إذا اعتدى عليها المعتدون، وتطاول عليها الطغاة المستكبرون.

والقرآن الكريم، والسنة الشريفة: حافلان بالنصوص الغزيرة المتوافرة التي تبين فضيلة الجهاد وعلو منزلته في دين الله، بما لا يدع مجالا لأي ريب.

وحسبنا من القرآن قوله تعالى: ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ لا يستوون عند الله، والله لا يهدي القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله، وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبدا، إن الله عنده أجر عظيم ﴾ التوبة: ٢٢,٩١.

وقال تعالى: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما ﴾ النساء: ٩٦,٩٥.

وفي أكثر من حديث صحيح: أن فضل الجهاد يفوق فضل الصائم الذي لا يفطر، والقائم الذي لا يفتر.

وفي حديث معاذ بن جبل المشهور:" ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد في سبيل الله

وفي الحديث الآخر: « لمقام أحدكم في الصف خير من صلاته في بيته ستين عاما » .

إلى غير ذلك من الأحاديث، وهي غزيرة وفيرة، تراجع في كتاب (الجهاد) في الصحيحين والسنن، وفي مظانها في المسانيد .

وقد ألفت كتب خاصة في فضل الجهاد، كما في كتاب عبد الله بن المبارك رضي الله عنه .

وأما المعنى المقبول من الحديث، فهو العناية بجهاد النفس، ورياضتها، والعمل على إلجامها بلجام التقوى، ومقاومة أهوائها وشهواتها، حتى تنتقل من حالة (النفس الأمارة بالسوء) إلى حالة (النفس اللوامة) ثم ترتقي حتى تصل إلى (النفس المطمئنة) .

وهذا يحتاج إلى جهاد طويل النفس، بعيد الأغوار، كثير المشقات، ولكنه مبارك الثمرات، موفور الخيرات، ولا ريب أن نهاية هذا الطريق الشاق المضني هي الهداية إلى سبيل الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين ﴾ العنكبوت: ٦٩ .

وفي الحديث:" المجاهد: من جاهد هواه(١٣) .

وجهاد النفس هنا هو أحد أنواع الجهاد المطلوبة من المسلم، وقد أوصلها العلامة ابن القيم إلى ثلاث عشرة مرتبة . منها أربع مراتب في جهاد النفس، ومرتبتان في جهاد الشيطان .

والله الموفق للصواب .

---

(١٣)رواه: أبو داود، الترمذي وقال: حسن صحيح، وأحمد كلهم عن فضالة بن عبيد .

حــديث

بعثت بين يدي الساعة بالسيف

س: يستند بعض دعاة العنف من الفصائل المسلحة، التي تنسب نفسها إلى الإسلام، أو ينسبها الناس إلى الإسلام – في جملة ما يستندون إليه– إلى حديث نبوي شريف، يزعمون أنه صحيح، وهو الحديث الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري. ومن تشبه بقوم فهو منهم".

ونحن نعلم أن علم الحديث ورجاله: بحر واسع عميق، لا يستطيع السباحة فيه أو الغوص في أعماقه إلا أهله، ولذا وقفنا أمام هذا الحديث لنسأل أهل الذكر: أهذا الحديث صحيح حقيقة أم لا؟ وإن كنا من ناحية المعنى ننكره، فإن الرسول الكريم بعث بالحجة والإقناع والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وليس بالسيف والعنف، والله تعالى يقول: ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾.

نرجو من سماحتكم إلقاء ضوء كاشف على القيمة العلمية لهذا الحديث الذي تمسك به المتشددون، وشنّع به المشنعون من أعداء الإسلام: أن هذا الدين دين السيف.

ورأينا انتشار ظاهرة العنف الدموي في عدد من بلادنا الإسلامية، نتيجة لشيوع هذه الثقافة الملغومة، التي تغذّى بها عقول الشباب الغض، فينحرفون عن الطريق، ويستبيحون الحرمات، ويسفكون دماء البرآء بغير حق، بدعوى أن الإسلام (دين السيف). وهو يعني عندهم استعمال القوة المادية والعسكرية –وليس غيرها– في التغيير والإصلاح.

سدد الله خطاكم، ونفع بكم.

ج: الحمد لله روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا محمد بن زيد -يعني الواسطي- أخبرنا ابن ثوبان، عن حسان بن عطية، عن أبي منيب الجرشي، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعثت بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم

الحديث رقم (٥١١٤) و(٥١١٥) من المسند بتحقيق شاكر.

نظرة في الحديث من جهة إسناده:

ولنا في هذا الحديث نظرتان: نظرة فيه من جهة الإسناد، ونظرة فيه من جهة المتن.

وإذا نظرنا في إسناده وجدنا عددا من العلماء المعاصرين خرجوه. فلننظر ماذا قالوا؟

تخريج الشيخ أحمد شاكر:

قال الشيخ أحمد شاكر في تخريجه: إسناده صحيح. ابن ثوبان: هو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، سبق الكلام عليه (٣٢٨١) و(٤٩٦٨). حسان بن عطية المحاربي الدمشقي: ثقة؛ وثقه أحمد وابن معين وغيرهما، وترجمه البخاري في الكبير ٢ / ١ / ٣١. أبو منيب الجرُشي الدمشقي الأحدب: تابعي ثقة؛ وثقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات، وترجمه البخاري في الكنى رقم (٦٥٨). الجرُشي (بضم الجيم وفتح الراء، وبالشين المعجمة): نسبة إلى «بني جرش» بطن من حمير.

قال: والحديث ذكر البخاري بعضه في الصحيح ٦: ٧٢ معلقًا، قال. باب ما قيل في الرماح، ويذكر عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري».

وخرجه الحافظ في الفتح عن المسند من هذا الوجه، ثم قال :وأخرج أبو داود منه قوله: « من تشبه بقوم فهو منهم » فحسب، من هذا الوجه. وأبو منيب لا يعرف اسمه. وفي الإسناد عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان: مختلف في توثيقه.

وأورد الهيثمي الحديث في (مجمع الزوائد: ٦/ ٤٩) وقال: رواه أحمد، وفيه: عبد الرحمن بن ثابت، وثقة ابن المديني وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات. انتهى.

ولما رجعت إلى الحديث رقم (٣٢٨١) ، الذي سبق للشيخ شاكر فيه توثيق ابن ثوبان، وجدته قال عنه: قال أحمد: أحاديثه مناكير. وقال أيضًا: لم يكن بالقوي في الحديث.

وقال أيضًا: كان عابد أهل الشام.

وقال يعقوب بن شيبة: اختلف أصحابنا فيه، فأما ابن معين فكان يضعفه، وأما علي -يعني: ابن المديني- فكان حسن الرأي فيه، قال: ابن ثوبان رجل صدق لا بأس به، وقد حمل عنه الناس. ووثقه الغلاس ودحيم وأبو حاتم، وذكره ابن حبان في الثقات. واختلفت الرواية فيه عن ابن معين، فروي عنه أيضًا أنه قال: صالح.

قال شاكر: والظاهر: أنهم تكلموا فيه من أجل القدر، ومن أنه تغير عقله في آخر عمره، ولم يذكره البخاري ولا النسائي في الضعفاء، وصحح له الترمذي حديثًا. انتهى.

هذا ما انتهى إليه العلامة الشيخ شاكر رحمه الله، فقد صحح إسناد الحديث، برغم ما في الرجل من خلاف شديد حول توثيقه أو تضعيفه. والشيخ شاكر معروف بتساهله في التصحيح، فلا يكاد يوجد راو مختلف فيه إلا ووثقه واعتمده. و قول الإمام أحمد : أحاديثه مناكير يدل على أنه لم يضعفه من أجل القدر كما قال الشيخ.

وقد رأيناه نقل عن حافظين كبيرين ذكرا الحديث ولم يصححاه:

أحدهما: الحافظ نور الدين الهيثمي صاحب (مجمع الزوائد)

والثاني: الحافظ ابن حجر في (الفتح)

وكلاهما ذكر الحديث، وذكر ما في راويه ابن ثوبان من خلاف. ومما يؤخذ على كلام الشيخ شاكر: أنه قال: ذكر البخاري بعضه في الصحيح معلقًا، وكان ينبغي أن يقول: بغير صيغة الجزم، بل بصيغة التمريض والتضعيف. لأنه قال: ويذكر عن ابن عمر...... إلخ.

تخريج الألباني:

وقد فتح الشيخ شاكر باب تصحيح هذا الحديث للمعاصرين، فنجد الشيخ ناصر الدين الألباني صححه في أكثر من كتاب له.

ففي صحيح الجامع الصغير وزيادته ذكره برقم (٢٨٣١) ذكر أنه صحيح، وأشار بالرجوع إلى كتابه: حجاب المرأة ١٠٤ والارواء ١٢٦٩.

وبالرجوع إلى (الإرواء) أعني (إرواء الغليل في تخرج أحاديث منار السيل) وقد ذكر صاحب المنار الجزء الأخير من الحديث وهو الذي أخرجه أبو داود منه – وهو. « من تشبه بقوم فهو منهم » . قال في تخريجه: صحيح. أخرجه أحمد (٢ / ٥٠ ، ٩٢) وعبد بن حميد في « المنتخب من المسند» ق ٢٩ / ٢) وابن أبي شيبة في "المصنف" (٧ / ١٥٠ / ١) وأبو سعيد ابن الأعرابي في المعجم (ق ١١٠ / ٢) والهروي في "ذم الكلام" (ق ٥٤ / ٢) عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

قلت: وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات غير ابن ثوبان هذا، ففيه خلاف، وقال الحافظ في «التقريب». صدوق، يخطئ، وتغير بآخرة.

وقد علق البخاري في صحيحه (٦ / ٧٢) الجملة التي قبل الأخيرة، والتي قبلها(١٤)، ولأبي داود منه (٤٠٣١) الجملة الأخيرة.

ولم يتفرد به ابن ثوبان، فقال الطحاوي في «مشكل الآثار» (١ / ٨٨): حدثنا أبو أمية حدثنا محمد بن وهب بن عطية ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية به.

قلت: وهذا إسناد رجاله ثقات غير أبي أمية واسمه محمد بن إبراهيم الطرسوسي قال الحافظ في «التقريب»:

«صدوق، صاحب حديث، يهم».

والوليد بن مسلم ثقة محتج به في الصحيحين، ولكنه كان يدلس تدليس التسوية، فإن كان محفوظًا عنه، فيخشى أن يكون سوّاه

وقد خالفه في إسناده صدقة فقال: عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم به.

أخرجه الهروي (ق ٥٤ / ١) من طريق عمر ابن أبي سلمة حدثنا صدقة به.

وصدقة هذا هو ابن عبد الله السمين الدمشقي وهو ضعيف.

وخالفهما عيسى بن يونس فقال: عن الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن طاوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فذكره.

أخرجه ابن ابي شيبة (٧ / ١٥٢ / ١).

قلت: وهذا مرسل، وقد ذكره الحافظ في «الفتح» (٦ / ٧٢) من رواية ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبلة مرسلاً، لم يذكر فيه طاوسًا وقال: «إسناده حسن».

---

(١٤) ولكنه علقها بصيغة التضعيف لا بصيغة الجزم، مما يدل على ضعف الحديث عنده.

كذا قال، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير سعيد بن جبلة، وقد أورده ابن أبي حاتم (٢ / ١ / ١٠) من رواية الأوزاعي عنه وقال عن أبيه: « هو شامي » . ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، وهو على شرط ابن عساكر في تاريخه ولم يورده فيه.

ثم أخرجه الهروي (٥٤ / ١-٢) وأبو نعيم في « أخبار أصبهان » (١ / ١٢٩) من طريق بشر بن الحسين الأصبهاني ثنا الزبير بن عدي عن أنس ابن مالك مرفوعًا به.

قلت: وبشر هذا متروك متهم فلا يفرح بحديثه. انتهى.

وبهذا تبين لنا أن الحديث لم يأت من طريق واحدة صحيحة متصلة سالمة من النقد، وإنما صححه من صححه بطرقه، وكلها لا تسلم من مقال، ولم تكثر إلى درجة يقال: يقوي بعضها بعضًا. على أن التصحيح بكثرة الطرق - وإن لم يكن معروفًا عند المتقدمين من أئمة الحديث - إنما يعمل به في القضايا اليسيرة، والأمور الجزئية البسيطة، لا في مثل هذا الأمر الذي يعبر عن عنوان الإسلام واتجاهه: هل بعث رسوله بالرحمة أو بعث بالسيف؟

تخريج الشيخ شعيب:

وأما الشيخ شعيب الأرناؤوط، فله تخريجان للحديث: قديم وحديث.

فأما القديم ففي تخريج أحاديث (زاد المعاد) عندما حققه منذ سنين، وكان فيه مقلداً أكثر منه محققًا ومستقلاً، فحسّن إسناده.

وأما الجديد، ففي تخريجه للمسند، حيث أصبح أكثر نضجًا واستقلالاً من ناحية، وحيث غدا يشاركه خمسة آخرون من العلماء، فهو عمل جماعي له قيمته.

في تخريج الزاد، بعد أن ذكر ابن القيم الحديث مستشهداً به على

أن الذل والصغار على من خالف أمر محمد صلى الله عليه وسلم، قال شعيب:

أخرجه أحمد في (المسند): ٢/ ٥٠، ٩٢ وسنده حسن، وجود ابن تيمية إسناده في (الاقتضاء) ص ٢٩، وصححه الحافظ العراقي في (الإحياء) وحسنه الحافظ في (الفتح) ١٠/ ٢٣. وأخرج الجملة الأخيرة منه أبو داود (٤٠٣١) وعلق طرفا منه البخاري في (صحيحه) ٦/ ٧٢ وله شاهد مرسل بسند حسن، أخرجه ابن شيبة من طريق الأوزاعي (حاشية « زاد والمعاذ » ج١/ ٣٥) طبعة الرسالة.

ويلاحظ هنا: أن الحافظ في (الفتح) لم يحسنه، بل ذكر الاختلاف في توثيق ابن ثوبان، وإنما حسن الشاهد المرسل له، كما يلاحظ أن الشيخ شعيب قلد الشيخ أحمد شاكر حين ذكر أن البخاري علق طرفا منه، ولم يشر إلى أنه بصيغة التضعيف.

وفي تخريج المسند في الجزء السابع الذي اشترك فيه مع الشيخ شعيب: محمد نعيم العرقسوس وإبراهيم الزئبق، قالوا: إسناده ضعيف، على نكارة في بعض ألفاظه. ابن ثوبان: اختلفت فيه أقوال المجرحين والمعدلين، فمنهم من قوى أمره، ومنهم من ضعفه، وقد تغير بآخره. وخلاصة القول فيه: أنه حسن الحديث إذا لم يتفرد بما ينكر، فقد أشار الإمام أحمد إلى أن له أحاديث منكرة، وهذا منها.

وذكروا ممن أخرجه: عبد بن حميد... والطبراني في مسند الشاميين... وابن الأعرابي في معجمه. والبيهقي في الشعب... أربعتهم عن ابن ثوبان وزادا فيه بعد قوله: بعثت بالسيف: « بين يدي الساعة ».

وعلق البخاري (٦/ ٩٨ الفتح) بعضه بصيغة التمريض.

وأخرجه الطحاوي في (شرح مشكل الآثار) بإسناده، وفيه ثلاث

علل، بينوها بتفصيل. ثم قالوا: فهذه العلل الثلاث مجتمعة لا يمكن معها تقوية الحديث المرفوع بمتابعة الأوزاعي لابن ثوبان. والله تعالى أعلم.

انظر: الجزء السابع من مسند الإمام أحمد ص ١٢٣ – ١٢٥ تخريج الحديث (٥١١٤).

وأزيد هنا فأقول: إن الإمام أحمد لم يقل: إن له أحاديث منكرة، بل قال: أحاديثه مناكير. وهذه العبارة أشد من الأولى.

ما قاله رجال الجرح والتعديل عن ابن ثوبان:

ويحسن بنا هنا – استكمالاً للبحث– أن نضع بين يدي القارئ المهتم: أقوال أئمة الجرح والتعديل في عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، أحد الرواة، الذي اختلف في توثيقه، كما رأينا، وهو سبب ضعف هذا الحديث.

ونكتفي هنا بكتاب لعله أهم الكتب في هذا الباب، وهو: كتاب (تهذيب الكمال) للمزي، وهو خاص برواة الكتب الستة، وقد تفرع عنه عدة كتب، مثل: تهذيب التهذيب لابن حجر، وتقريب التهذيب له أيضًا، وتذهيب الكمال للذهبي، وخلاصة تذهيب الكمال للخزرجي. وأمها جميعًا: تهذيب الكمال للمزي.

ما نقله المزي في تهذيب الكمال:

أما ما ذكره الحافظ المزي في تهذيب الكمال عن ابن ثوبان، فقد قال في ترجمته برقم (٣٧٧٥): قال أبو بكر الأثرم عن أحمد بن حنبل: أحاديثه مناكير.

وقال محمد بن علي الوراق، عن أحمد بن حنبل: لم يكن بالقوي في الحديث.

وقال أبو بكر المروذي، عن أحمد بن حنبل: كان عابد أهل الشام.

وذكر من فضله، قال: لما قدم به دخل على ذاك الذي يقال له المهدي، وابنته على عنقه.

وقال إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد، عن يحيى بن معين: صالح.

وقال في موضع آخر: ضعيف.

وقال عباس الدوري، عن يحيى بن معين: ليس به بأس.

وكذلك قال علي بن المديني، وأحمد بن عبد الله العجلي، وأبو زرعة الرازي.

وقال معاوية بن صالح، وعثمان بن سعيد الدرامي، وعبد الله بن شعيب الصابوني، عن يحيى بن معين: ضعيف.

زاد معاوية: فقلت: يكتب حديثه؟. قال: نعم على ضعفه، وكان رجلاً صالحًا.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة، عن يحيى بن معين: لا شيء.

وقال يعقوب بن شيبة السدوسي: اختلف أصحابنا فيه، فأما يحيى بن معين، فكان يضعفه، وأما علي بن المديني فكان حسن الرأي فيه، وقال: كان ابن ثوبان رجل صدق، لا بأس به، استعمله أبو جعفر والمهدي بعده على بيت المال، وقد حمل الناس عنه.

وقال عمرو بن علي: حديث الشاميين كلهم ضعيف، إلا نفرًا منهم: الأوزاعي، وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان. وذكر آخرين.

وقال عثمان بن سعيد الدرامي، عن دحيم: ثقة، يرمى بالقدر، كتب إليه الأوزاعي، فلا أدري أي شيء رد عليه.

وقال أبو حاتم: ثقة.

وقال في موضع آخر: يشوبه شيء من القدر.

وقال أبو داود: كان فيه سلامة، وكان مجاب الدعوة، وليس به بأس، وكان على المظالم ببغداد.

وقال النسائي: ضعيف.

وقال في موضع آخر: ليس بالقوي.

وقال في موضع آخر: ليس بثقة.

وقال صالح بن محمد البغدادي: شامي صدوق، إلا أن مذهبه مذهب القدر، وأنكروا عليه أحاديث، يرويها عن أبيه، عن مكحول مسندة، وحديث الشامي لا يضم إلى غيره، معروف خطؤه من صوابه.

وقال في موضع آخر: لم يسمع من بكر بن عبد الله شيئًا، وإنما يروي عن أبيه، وعن الشاميين

وقال ابن خراش: في حديثه لين.

وقال أبو أحمد بن عدي: له أحاديث صالحة، يحدث عنه عثمان الطرائفي بنسخة. ويحدث عنه يزيد بن مرشل بنسخة، ويحدث عنه الفريابي بأحاديث، وغيرهم، وقد كتبت حديثه عن ابن جوصي وابن أبي عروبة من جمعيهما، ويبلغ أحاديث رجلاً صالحًا، ويكتب حديثه على ضعفه، وأبوه ثقة.

وذكره ابن حبان في كتاب الثقات.

وقال أبو بكر الخطيب: كان ممن يذكر بالزهد والعبادة والصدق في الرواية. انتهى

وبهذا يتبين لنا أن مجرحيه أكثر، وأن موثقيه– وهم قلة– لم يوثقوه بإطلاق. فدحيم الذي وثقه قال: يرمي بالقدر، كتب إليه الأوزاعي، فلا أدري أي شيء رد عليه. وأبو حاتم الذي وثقه قال عنه أيضاً: يشوبه شيء من القدر. وتغير عقله في آخر حياته.

وكما رمي بالقدر، رمي بالخروج، وقد ذكر الذهبي في (الميزان) عن الوليد بن فريد أنه روى عن الأوزاعي، أنه كتب إلى ابن ثوبان يقول له: وقد كنت ترى قبل وفاة أبيك: ترك الجمعة حرام، وقد أصبحت ترى ترك الجمعة والجماعة حلالاً.

ومعنى هذا: أنه رجل لديه استعداد للغلو، ومثله يروج عنده حديث مثل « بعثت بين يدي الساعة بالسيف » .

ونقل الذهبي عن العقيلي أنه قال: لا يتابع ابن ثوبان إلا من هو دونه أو مثله[١٥] .

وذكره ابن الجوزى في جملة الضعفاء.

وقال الذهبي في (أعلام النبلاء) : لم يكن بالمكثر، ولا هو بالحجة، بل صالح الحديث[١٦] .

وقال ابن حجر في (التقريب) : صدوق يخطئ، ورمي بالقدر، وتغير بآخرة[١٧] . انتهى.

ومثل هذا الراوي لا يؤخذ منه حديث يحمل مثل هذا المضمون الخطير: الإسلام دين السيف! وأن الرسول يرتزق من رمحه!

نظرة أخرى في الحديث من جهة متنه ومضمونه:

وإذا غضضنا الطرف عن سند الحديث وما فيه من كلام، ونظرنا في متنه ومضمونه، وجدناه منكراً، لا يتفق مع ما قرره القرآن بخصوص ما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن لم يقرر في آية واحدة من آياته أن محمداً رسول الله بعثه الله بالسيف، بل قرر في آيات شتى أن الله بعثه بالهدى ودين الحق والرحمة والشفاء والموعظة للناس.

---

(١٥) انظر: ميزان الاعتدال: ترجمة (٤٨٢٨).

(١٦) سير أعلام النبلاء: ٣١٤.

(١٧) تقريب التهذيب: ص ٢٧٩ ترجمة (٣٨٢٠) طبعة الرسالة - بيروت.

وهذا ثابت بوضوح في القرآن المكي، وفي القرآن المدني، على سواء.

يقول تعالى في سورة الأنبياء وهي مكية : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ الأنبياء: ١٠٧ .

وعبر عن هذا النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « إنما أنا رحمة مهداة »(١٨) .

وقال تعالى في سورة النحل، وهي مكية : ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ النحل: ٨٩ .

وقال تعالى في سورة يونس وهي مكية: ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ يونس: ٥٧ .

وقال تعالى في سورة التوبة ، و هي مدنية : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون﴾ التوبة: ٣٣.

وقد تكررت بلفظها في سورة الصف: ٩ وهي مدنية.

وفي سورة الفتح، وهي مدنية، نقرأ قوله تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً ﴾ الفتح: ٢٨ .

وفي ختام سورة التوبة أيضًا : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولَّوْا فقل حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ التوبة : ١٢٩ .

وفي سورة آل عمران، وهي مدنية : ﴿ فإن حاجوك، فقل: أسلمت

---

(١٨) الحاكم (١/ ٣٥) صحيحه ووافقه الذهبي.

وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد ﴾ آل عمران: ٢٠ .

وفي سورة النور، وهي مدنية: ﴿ قل: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل، وعليكم ما حملتم، وإن تطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ النور: ٥٤ .

وهذه الآيات كلها قد اتفقت على أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- إنما بعث بالرحمة والهدى ودين الحق، وتبيان كل شيء، وإقامة الحجة على الناس، ولم يبعث شاهراً سيفه على الناس، حتى في حالة تولي الناس عنه: لم يؤمر بأن يشهر في وجوههم السيف، إنما قيل له: إنما عليك البلاغ، وإنما عليه ما حمل، وعليهم ما حملوا وقل: حسبي الله.

والمبشرون والمستشرقون، وغيرهم من خصوم الإسلام يشيعون: أن الإسلام إنما انتشر بالسيف ويستند كثيرون منهم إلى هذا الحديث وأمثاله.

والحقيقة أن الإسلام إنما شهر السيف في وجه الذي صدوا عن سبيله، وقاوموه بالقوة، ورفعوا السيف في وجهه، كما قال تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ البقرة: ١٩٠ - ١٩٣ .

فهذا هو منطق القرآن، بين كل البيان، لا لبس فيه ولا غموض، فإذا عارضه حديث مثل حديث (بعثت بالسيف) فلا شك أن القرآن هو المقدم، فهو المصدر الأول، والدليل الأول، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولو بعث الرسول بالسيف، لظهر ذلك طوال ثلاثة عشر عامًا، قضاها في مكة، وأصحابه يأتون إليه بين مضروب ومشجوج ومعتدى عليه، يستأذنونه في أن يدافعوا عن أنفسهم بالسلاح، فيقول لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة. حتى هاجروا إلى المدينة فأذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم وحرماتهم ودعوتهم. كما قال تعالى: ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ....الآية ﴾ الحج: ٣٩،٤٠.

والخلاصة: أن هذا الحديث (بعثت بالسيف) سواء نظرنا إلى إسناده أم نظرنا إلى متنه، فهو مردود غير مقبول في ضوء موازين العلم وقواعده الضابطة.

والحمد لله رب العالمين.

حديث

اذكروا محاسن موتاكم

س: شاع بين الناس إذا ذكر ميت بسوء أن ينهوا عن ذلك قائلين: اذكروا محاسن موتاكم بدعوى أن هذا حديث نبوي. مع أن بعض الموتى قد يكون ظلمة في حياتهم، وربما ماتوا ولم تمت مظالمهم معهم. فهل هذا الحديث صحيح؟ وما المقصود منه؟

ج: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

الحديث في النهي عن سب الأموات، والأمر بذكرهم بخير: صحيح. وقد ورد بصيغ شتى متضمناً أحياناً العلة في النهي عن السب.

فقد ورد بصيغة: لا تسبوا الأموات فانهم أفضوا إلى ما قدموا(١٩).

وورد بصيغة: لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء(٢٠).

وورد بصيغة: لا تذكروا هلكاكم إلا بخير(٢١).

وورد بالصيغة المذكورة في السؤال اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم(٢٢).

وهدف هذا النهي عدة أمور تربوية يحرص عليها الإسلام في تكوين شخصية المسلم:

أولاً: تعويد المسلم نظافة اللسان وعفة القول، اقتداء بالرسول الكريم، الذي لم يكن سبابا ولا لعانا، وإنما يكب الناس في النار على وجوههم حصائد ألسنتهم.

---

(١٩) رواه عن عائشة أحمد والبخاري والنسائي – صحيح الجامع الصغير وزيادته (٧٣١١).
(٢٠) رواه أحمد والترمذي عن المغيرة. المصدر السابق (٧٣١٢).
(٢١) رواه النسائي عن عائشة – المصدر نفسه (٧٢٧١).
(٢٢) رواه أبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي عن ابن عمر، وفي اسناده راو ضعيف، ولذا ذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير رقم (٨٣٩).

ثانيًا : تربية المسلم على المعاني الإيجابية،كما قيل:بدل أن تسب الظلام أضئ شمعة!ولذا جاء عدد من الأحاديث ينهى عن سب جملة من الأشياء . « لا تسبوا الدهر » « لا تسبوا الحمى » « لا تسبوا الريح » « لا تسبوا الدي » إلخ.. بل وورد التنفير عن سب الشيطان نفسه،لأنك إذا قلت:تعس الشيطان انتفخ،وإذا قلت:بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب.وفي هذا الإطار جاء النهي عن سب الأموات.

ثالثًا: إن الإسلام حفظ حرمة المسلم حيا وميتا،وكل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله.وكما يحرم تناول عرض الإنسان وسمعته بسوء في حياته،يحرم ذلك بعد مماته.

رابعًا: إن الميت قد انتقل من دار العمل والابتلاء، إلى دار الحساب والجزاء،وسيلقى جزاءه العادل في تلك الدار لا محالة ، ولا يضيع عند الله مثقال ذرة من خير أو شر،وقد أشار إلى ذلك الحديث القائل : « لا تسبوا الموتى فإنهم أفضوا إلى ما قدموا » .

خامسًا: إن الإسلام حريص على توثيق عرا الود وحسن الصلة بين الناس،ومنع أسباب التباغض والتشاحن بينهم،فإن البغضاء هي الحالقة،حالقة الدين لا حالقة الشعر.وكثيرا ما يؤدي سب الأموات إلى إيذاء وإيغار صدورهم،الأحياء من أبناء وأقارب.

وفي العهد النبوي أسلم كثير من أبناء عتاة المشركين،فإذا سبّوا أذى أبناءهم،فمن سب أبا جهل أذى ابنه عكرمة،ومن سب الوليد بن المغيرة أذى ابنه خالدا،ومن سب عتبة بن ربيعة أذى ابنه أبا حذيفة..إلخ..ولذا قال الحديث:لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء .

فهذه أسباب منع سب الموتى،ولكن ما الحكم إذا كان الميت ظالما أو طاغية ترك وراءه مظالم؟

هنا ذكر العلماء أن سب الأموات لضرورة أو مصلحة شرعية، كالتحذير من بدعهم وضلالاتهم، حتى لا يقتدي الناس بهم، وكجرح الرواة - في علوم الحديث - لابتناء أحكام الشرع على ما يروونه، فلزم بيان حالهم، والتعريف بهم، حتى لا يأخذ الناس دينهم إلا عن العدل الثقة. وقد أجمع بما فيه حيا وميتا(٢٣) .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض من حضر معه بعض الغزوات، وقتل في المعركة، وقد غل من الغنيمة شيئا لا يستحقه قبل موته : « إني أرى الشملة التي غلها تشتعل عليه نارا » . قال ذلك عليه الصلاة ليحذر أصحابه أن يعملوا مثل عمله.

فالأصل هو منع السب عن الموتى، والجواز إنما هو استثناء لمصلحة شرعية أو ضرورة تقدر بقدرها.

وبالله التوفيق.

---

(٢٣) انظر : شرح الحديث (٩٧٨٢) في (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للمناوي ج ٦ / ٢٩٨ .

حـــديث

لا رهبانية في الإسلام

س : ما مدى صحة الحديث المنسوب إلى النبي ﷺ ، والذي يقول : « لا رهبانية في الإسلام » وهل ينكر الإسلام التفرغ لعبادة الله تعالى ، والبعد عن زخارف الدنيا ؟

أرجو من فضيلتكم بيان هذا الموضوع في ضوء الأدلة الشرعية من القرآن والسنة . نفع الله بكم .

ج : الحديث بهذا اللفظ « لا رهبانية في الإسلام » غير وارد . وإن ذكره بعض المصنفين الكبار في كتبهم ولذا قال الحافظ ابن حجر الباري : لم أره بهذه اللفظ .

ولكن هناك عدة أحاديث في هذا المعنى :

منها ما رواه أحمد عن أنس في المسند : « لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل »(٢٤) .

قال الحافظ ابن كثير : رواه الحافظ أبو يعلي من طريق ابن المبارك ، ولفظه « لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة : الجهاد في سبيل الله »(٢٥) .

وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري : « أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنه رأس كل شئ ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام .. الحديث »(٢٦) .

وروى البيهقي من حديث أبي أمامة : « تزوجوا ، فإني مكاثر بكم الأمم ، ولا تكونوا كرهبانية النصارى »(٢٧) .

---

(٢٤) المسند ٣/٢٦٦ .

(٢٥) تفسير ابن كثير ج ٤/٣١٦ طبعة الحلبي .

(٢٦) المسند ج ٣/٨٢ ، وقال الهيثمي : رجال أحمد ثقات (المجمعك ٤/٢١٥) وحسنه في صحيح الجامع الصغير (٢٥٤٣) .

(٢٧) ذكره الحافظ في الفتح ج ٩/١١١ في شرح الحديث رقم (٥٠٦٥) .

وروى أحمد وأبو داود والحاكم وصححه عن ابن عباس رفعه : « لا صرورة في الإسلام »(٢٨) والصرورة : من لم يتزوج . وقيل : من لم يحج .

وروى الطبراني عن سعد بن أبي وقاص : « إن الله أبدلنا بالرهبانية : الحنيفية السمحة »(٢٩) .

وروى أحمد عن عائشة أن النبي ﷺ قال لعثمان بن مظعون : « يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا ، أفمالك فيّ أوسوة ؟ فوالله إني أخشاكم لله ، وأحفظكم لحدوده »(٣٠) .

وهذا يؤكد لنا أن معنى الحديث صحيح ، إذ (الرهبانية) تتضمن عدة عناصر أساسية ، كلها يرفضها الإسلام : وهذه العناصر هي :

١ – الانقطاع الكامل للتعبد .

٢ – الامتناع الدائم عن الزواج .

٣ – الاعراض عن عمارة الأرض ، والعمل للدنيا والمعيشة .

٤ – البعد عن الزينة وطيبات الحياة .

والإسلام يرفض هذه المعاني ، لأنه يقوم على فكرة التوازن بين الروحية والمادية ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين حق الرب وحظ النفس ، وبين المثالية والواقعية .

١ – فأما الانقطاع الكامل للعبادة ، فقد رفضه الإسلام ، وقال للثلاثة الذين قال أحدهم : أما أنا فأقوم الليل ولا أرقد ، وقال الثاني : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج « قال لهم : إني أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أقوم وأنام ، وأصوم أفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » متفق عليه عن أنس .

---

(٢٨) اذكره الحافظ في المصدر السابق .

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) المسند (٦/٢٢٦) وقال الهيثمي في المجمع : رجاله ثقات (٣٠١) .

وقال لعبد الله بن عمرو ، حين واصل صيام النهار وقيام الليل : إن لجسدك عليك حقا ، ولعينيك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولزورك (زوارك) عليك حقا وأمره أن يخفف من صيامه وقيامه ، حتى يقوم بالحقوق الأخرى .

وقال نحوذلك لعثمان بن مظعون .

ويكفي المسلم أن يؤدي فرائض الله في العبادات ، ويزيد عليها من السنن والنوافل ، وهذه تستغرق زمنا محدوداً من اليوم ، ثم يستطيع أن يجعل أعماله كلها عبادة ، من خدمة المجتمع ، وكسب المعيشة ، حتى الأكل والشرب ، والاستمتاع بالزوجة ، تصبح بالنية الصالحة قربة إلى الله تعالى .

٢ - وأما الامتناع عن الزواج بصورة دائمة ، فهو ضد المنهج الإسلامي ، الذي يرى أن الزواج آية من آيات الله تعالى في الكون ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ الروم : ٢١ .

ويقول القرآن : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ النور : ٣٢ .

وقد استأذن بعض الصحابة النبي ﷺ أن يتبتلوا ويتركوا النساء ، فلم يأذن لهم ، كما روى البخاري عن سعد بن أبي وقاص قال : رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا » .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « وأنا أتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

لا مانع أن ينشغل المسلم عن الزواج بالعلم أو العمل أو الجهاد ، أو تربية إخوة صغار ، أو نحو ذلك ، كما رأينا كثيراً من العلماء ماتوا ولم يتزوجوا ، مثل النووي وابن تيمية وغيرهما . وقد ألف العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة - رحمه الله - كتاباً عن (العلماء العزاب) .

ولكن المسلم لا يترك الزواج تشبهاً بالرهبان وتحريماً له .

٣ - وأما الإعراض عن عمارة الأرض والعمل للمعيشة ، وتنمية الحياة ، فهو مما يقاومه الإسلام ، فإن من مقاصد الإسلام الأساسية من خلق البشر : عبادة الله وعمارة الأرض ، وكما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ الذاريات : ٥٦ قال : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ هود : ١٦ ومعنى (استعمركم) أي طلب إليكم أن تعمروها .

وعمارة الأرض تكون بالزراعة وإحياء الموات ، والصناعة والاحتراف والتجارة ، وكل ما ينمي الحياة ويرقيها ويجملها ، فإن الله جميل يحب الجمال .

والعمل للدنيا مشروع في كل الأيام ، حتى في يوم الجمعة ، فلا يوجد يوم يمتنع فيه المسلم عن العمل الدنيوي ، كيوم السبت عند اليهود . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذ قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ الجمعة : ١٠ ، فهذا هو شأن المسلم : قبل الجمعة في عمل وبيع وشراء ، حتى يسمع النداء ، وبعد الجمعة ينتشر في الأرض ويبتغي من فضل الله .

٤ - وأما البعد عن طيبات الحياة وزينتها ، إلى حد تحريمها على النفس ، فهو ما أنكره القرآن على أهل الأديان من قبله ، وجاء في ذلك قوله تعالى في القرآن المكي : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ ﴾ الأعراف : ٣١ - ٣٢ وما كان الله تعالى ليخلق هذه الطيبات ثم يحرمها على خلقه ، دون أن يكون فيها ضرر لهم . إنما يحرم الله الخبيث الضار ، وهذا ماوصف به رسول الإسلام في كتب أهل الكتاب أنه ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ الأعراف : ١٥٧ .

صحيح أن بعض الصوفية المسلمين غلوا في الزهد والتقشف ، ولكنهم كانوا متأثرين بمناهج وفلسفات أخرى مستوردة من خارج الإسلام ، فخرجوا عن حد الوسطية الإسلامية ، إلا من اعتصم بالقرآن والسنة منهم .

ومنهج الإسلام يتمثل في قوله : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ البقرة : ٢٠١ وفي دعاء الرسول الكريم : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » رواه مسلم عن أبي هريرة .

وفي قول الصحابة رضي الله عنهم : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وقد كان من الصحابة أغنياء كبار ، مثل عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وهما من العشرة المبشرين بالجنة ، ولم ينقص هذا من منزلتهما ، المهم أن تملك الدنيا ولا تملكك ، وأن تكون في يدك لا في قلبك ! .

وقد بين القرآن أن النصارى قد ابتدعوا الرهبانية من عند أنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ﴾ الحديد : ٢٧ .

وجاء في الحديث الذي رواه أنس مرفوعاً : « لا تشدّوا على أنفسكم ، فيشدّد عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم ، فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات : رهبانية ابتدعوا ما كتبناها عليهم »(٣١) .

وعن سهل بن حنيف مرفوعاً : « لا تشددوا على أنفسكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم ، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات »(٣٢) .

إن الرهبانية تمثل نوعاً من الغلو في السلوك الديني ، والإسلام إنما قام على التوازن والوسطية في كل شئ ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ .

---

(٣١) قال الهيثمي : رواه أبو يعلي ، ورجاله الصحيح ، غير سعد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء ، وهو ثقة (مجمع الزوائد : (٩/٢٥٦) .

(٣٢) قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ، وثقه جماعة وضعفه آخرون (١/٦٢) .